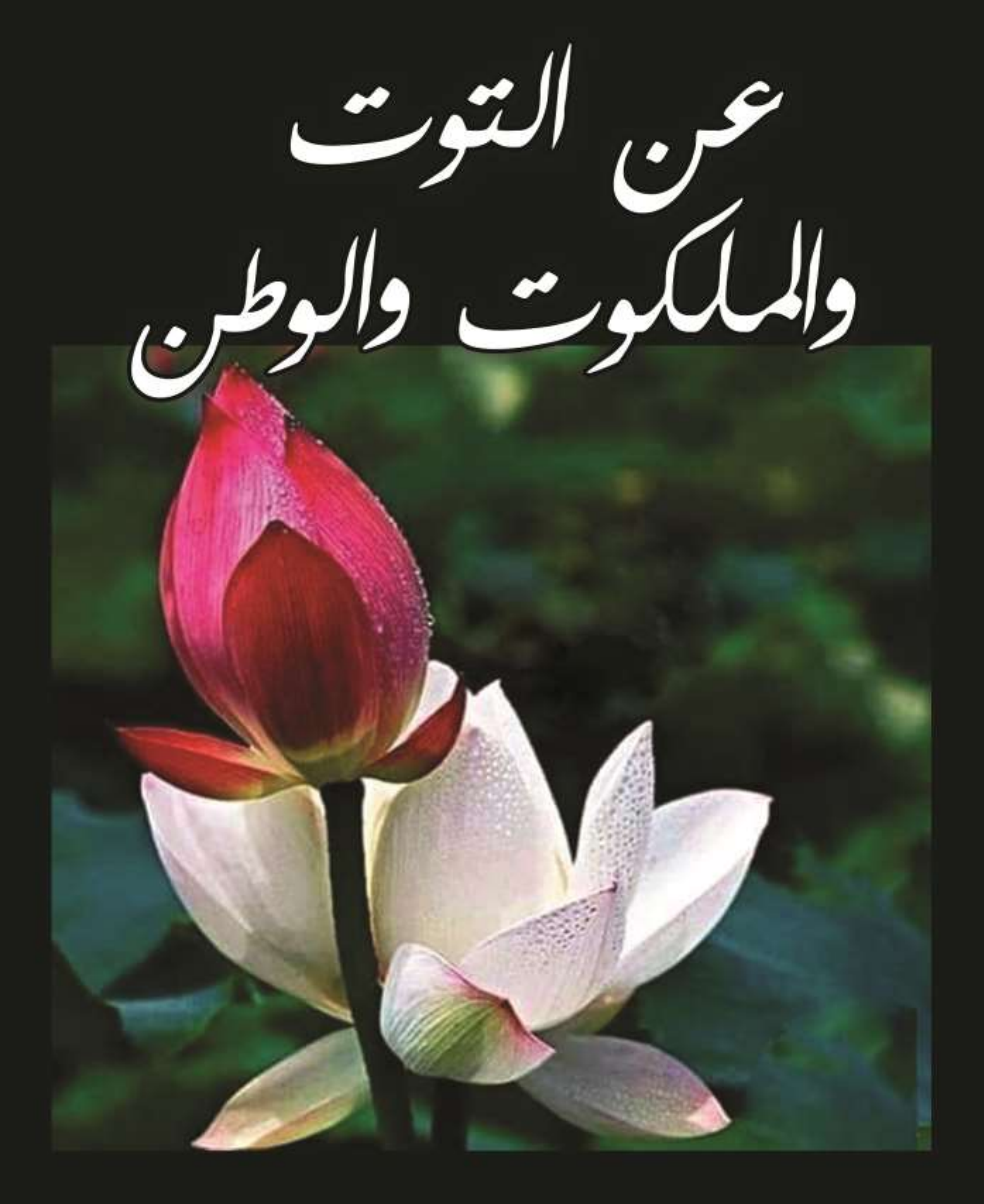


السيد حسن

عن التوت والملكوت والوطن

السيد حسن

كتاب طيوف سلسلة من إصدارات بسطرون





الطبعة الأولى

الكتاب : عن التوت والملكوت والوطن

المؤلف :السيد حسن

تصنيف الكتاب : نثر أدبي

تصميم وإخراج : مؤسسة طيوف

المقاس ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ٢٥٧٩٠ / ٢٠١٩

الترقيم الدولى : 4 - 99 - 6768 - 977 - 978

العنوان : ٢٩٨ شارع الملك فيصل - محطة ضياء

Email : ketabtoyof@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : كتاب طيوف

إهداء

إلى أختى الوسطى

وقد شاركتنى بطيبتها وحنوها

كل تفاصيل السعى في الملكوت

السيد حسن

كُتاب سيدنا

فِي ذَاكَ الرُّكن المَنْسِيّ

يَبتَسِمُ اللَّوحُ الخَشَبيّ

تَمتدُّ يَمِينِي، تَجْذِبُهُ

تَمْسَحُ وَجْهَيهِ، تُداعِبُهُ

تَتَطَايَرُ حَبَّاتُ غُبَارِ

تَتَسَاقَطُ أعْوَامٌ شَتَّى

وَيَلُوحُ الزَّمَنُ الطِّفْلِيّ

اللَّوحُ الخَشَبيّ الأَسْوَدْ

عُمْرٌ وَحَنِينٌ يَتَجَدَّدْ

خُطُوَاتٌ تُوغِلُ فِي المَاضِي

تَتَفَتَّحُ أبوابُ الدُّنيَا

وَيَلُوحُ طَرِيقٌ وَصَبيّ

يَا لَوحَ الأيَّامِ الغَضَّة

هَلْ تَذكُرُ أسْرَابَ الفِضَّة

إذْ تَسْطَعُ فِي عَينَيْ وَلَدٍ

يَتَهَجَّى الآيَاتِ ضِيَاءً

الوَجْهُ وَضِيءٌ مُبْتَسِمٌ

وَالقَلبُ طَمُوحٌ وَحَييّ

في داخل كل إنسان منا ذلك الركن المدهش الذي يختزن فيه أثمن ما لديه من أيام، والذي يلوذ به إذا ما قست عليه الأيام أو مرت به أيام فاقدة المعنى، والذي يمنحه إحساساً غامضاً بالأنس والثراء.

أنا شخصياً كثيراً ما ألوذ بهذا الركن مستدفئاً من صقيع الوحدة، أو مستظلاً من قيظ الحياة، أو مستريحاً من صخبها العالي وضجيجها الأجوف.

في ذلك الركن أجد مملكة خاصة يتصدرها ذلك اللوح الإردوازي أو الخشبي المدهش الذي كنت أحمله ذات يوم - أو بالأحرى كان يحملني ذات بهجة - إلى عالم سيدنا "عبد الرؤوف سيد أحمد" شيخي في الكُتاب، الذي أدين له، لا بحفظ الآيات التي تيسر لي حفظها من القرآن الكريم وفقط، ولا بتعليمي القراءة والكتابة فحسب، ولكن الأهم الإسهام في تكوين العقلية الناقدة، والقدرة على المحاورة الذهنية المستقيمة المنضبطة، وإطلاق الطاقات الخيالية الكبيرة الكامنة في كياني الصغير إلى أقصى مدى.

لم نكن نغادر كتابه وفقا للساعة، وإنما وفقاً للعلامة، أي حين يصل ظلل تلك الخشبة المثبتة في البيت المواجه لنا إلى منطقة معينة مؤذنة بأن موعد الانصراف قد حان.

كان الرجل يملك قدرة مدهشة على الاحتواء العقلي والأبوي

في آنٍ معاً، فوضع اللبنات الأولى في بناء الشخصية التي صرت إليها فيما بعد، لذلك حين قدر لي بعد ذلك أن أقرأ رواية "الأيام" لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، رحت أقارن شيخ كتابي بشيخ كتابه هو، فداخلني إحساس عظيم بأنني كنت محظوظاً بشيخي الفاهم الأبوي النبرة والمسلك.

كانت أياماً تفوح منها رائحة الحقيقة، لذلك عرفت طريقها إلى ركني الخاص، لتعانق أياماً أخرى امتلكت تلك الرائحة الفريدة، رائحة الحقيقة، فعرفت طريقها هي أيضاً إلى ذلك الركن المدهش.

شجر العمايشة

ثُوتُ البَرَاءَةِ فِي الطُّفُولَةِ وَالصِّبا

قَدْ عَلَّمَ القَلبَ المُغَامَرَةَ اللَّذِيذَةَ

فَارتَقَاهَا جَامِحاً مُسْتَعذِبَا

وَجَرَى هُنَاكَ كَمَا جَرَى عَرَقُ الجَبين

ظَهِيرَةً مُتَصَبِّبَا

هَذَا عَصِيرُ الرُّوح بَلَّ عُرُوقَ صَولَتِهِ

فَصَالَ مَعَ السُّهُول تَصَاعُداً صَوبَ الرُّبَى

أغصَانُ لَهفَتِهِ تَدَلَّتْ مُثقَلاتٍ بالكُنُوز

وَوَاعَدَتْ قَلبَ الفَتَى

ألا يَعُودَ سِوَى لَهَا مُسْتَصحِبَا

مَنَحَتْهُ وَعْدَ الرِّيحِ لِلأشجَار

حَلَّقَ حَيثُ شَاءَ مُشَرِّقاً وَمُغَرِّبَا

لَمْ يَرضَ يَوماً أنْ يَمُدَّ الكَفَّ يَقذِفَ

سِدْرَةَ الحُلمِ المُخَبَّأ كَي تَجُودَ .. أبَى أبَى

إلا صُعُوداً نَحوَ ذِروَتِهَا فَتُوتُ الحُلمِ

لا يَأتِي لِمَنْ يَرنُو بخَوفٍ

عَاجَزاً مُتَهَيِّبَا

يَا تُوتَ أيَّامِ البَرَاءَةِ دُمْ بحَلقِي

وَاسْقِ رُوحِي، طِبْ لِنَفْسِي مَشْرَبَا

مدهشة تلك الرائحة التي تسري في أشهر الربيع في كل عام، لا أتحدث عن رائحة الأزهار التي تسري في أجواء الدنيا، ولا عن رائحة الفتوة التي تسري في آفاق الروح، ولكن عن رائحة الذكريات التي تحمل الإنسان إلى زمن الصبا الجميل وذكرياته الاستثنائية.

أنا شخصيا تحملني هذه الرائحة إلى روح المغامرة اللذيذة التي ارتبطت بثمار التوت على أشجارها السامقة التي تحفظ خرائط أرواحنا، ربما بأكثر مما نحفظ نحن خريطة توزيع أغصانها.

نعم كان الربيع يعني لدينا ذلك التسابق المدهش إلى حيث أشجار التوت المصطفة على شاطئ النيل، ثم التسابق إلى أعلى نقطة فيها حيث الوصول إلى الثمار التي لا يصل إليها أحد، كنا نحفظ مكان كل شجرة ومذاق كل لون من ألوان الثمر، التوت الأبيض والتوت الأسود والتوت الحبشي الذي يمزج ما بين الأبيض والأسود في لون بنفسجي فاتح جميل.

لم يكن الأمر مجرد متعة تذوق الثمر اللذيذ، بل حياة كاملة فيها المغامرة الحذرة، والحذر المغامر، والطموح الجامح، والقدرة على الإنجاز.

هل كانت مجموعة أشجار آل عماشة التي كنا نسميها "شجر العمايشة" تغرينا فقط بطعم ثمرها اللذيذ؟ إذا كان هذا

صحيحاً فلماذا لا يكون لهذا الثمر طعم حين يأتينا حتى باب البيت؟!!

وهل كان التوت الحبشي الذي تمنحنا إياه الشجرة الساكنة ما بين المقابر وشاطىء النيل سيحتفظ بطعمه الساحر إذا انتظرنا أن يأتينا به أحد نظيفاً مغسولاً حتى باب البيت، بعيداً عن رعشة المرور على المقابر، ولسعة الشمس التي توشك أن تكون حارقة، وبعض الجروح المصحوبة ببعض الأتربة من جراء الاحتكاك بجذع الشجرة وأغصانها بعد السير في الطريق الطويل المُترب؟!!

هل كانت دروب "ميت أبوغالب" وشواطىء نيلها تمنحنا لذة الثمر أم لذة المغامرة؟

وهل كانت تسقينا عصير الثمر في أفواهنا أم عصير التجارب في أرواحنا؟!

وهل كان هذا كله هو ما يمنح الربيع رائحته التي مازالت تعاودنا إلى اليوم، أم أن الربيع بفتوته التي يبعثها في الأرواح هو ما كان يحفزنا إلى تلك التجارب الاستثنائية؟

وهل؟ وهل؟وهل؟

أسئلة لا تنتظر الإجابة بل تمنح الحياة التي فقدت طعمها ومعناها طعماً ومعنى.

الدهشة في بيت عبد الناصر

كان يوماً مختلفاً عما سواه من أيام، مجموعة من الشعراء والروائيين والنقاد مدعوون إلى متحف الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، في مناسبة تكريم المتحف للصديق الشاعر الأنيق محمود حسن رئيس مجلس أمناء مؤسسة الكرمة للتنمية الثقافية.

الكلمات تتوالى في القاعة الوسطى للمتحف متغنية بمآثر عبد الناصر وإنجازاته، هذا يتحدث عن موقف عبد الناصر المنحاز لبسطاء الوطن المنصف لفلاحيه وعماله، وذلك يتحدث عن النهضة الصناعية العملاقة التي وضع أسسها من نجع حمادي إلى حلوان والتبين ومن أسوان إلى الإسكندرية ومن شبرا الخيمة إلى منطقة القناة، وهذه تتغنى بعروبة ناصر، وتلك تذكرنا بمكانة مصر في عهده، هؤلاء يذكروننا بأن ستينيات القرن العشرين كانت درة التاج في الثقافة العربية، وأولئك يحكون طرفاً من ذكرياتهم الخاصة حول ناصر و... و....إلخ .

ثم كانت اللحظة الأكثر إدهاشاً في الليلة كلها، إنها اللحظة التي صحبتنا فيها الأستاذة نادية أحمد في جولة ما بين مقتنيات المتحف، ووجدنا أنفسنا ندخل مكتب عبد

الناصر الذي كان يمارس فيه عمله، ثم مكتبه الذي كان يستقبل فيه ضيوف الوطن، و بعدها غرفة نومه وغرفة الصالون الخاص بأسرته، هنا كانت الدهشة العنوان الأبرز للحظة، وكانت البساطة هي البطل الحاضر بقوة في كل تفصيلة من تفصيلات المكان.

هل يمكن أن يكون هذا المكتب بالغ البساطة هو المكان الذي اتخذت فيه قرارات هزت العالم بأسره من أقصى مشارقه إلى أقصى مغاربه؟! وهل يمكن أن تكون هذه الغرفة بالغة البساطة هي التي شهدت لقاءات أهم زعماء العالم في خمسينيات القرن الماضي وستينياته؟!

جهاز الراديو هو الملمح الأبرز في كل ركن من أركان هذا البيت البسيط جداً جداً جداً. نعم أستطيع أن أقول مطمئناً: إن شقة أي شخص من زوار المتحف في تلك الليلة تفوق هذا المكان ثراءً وفخامة وغنى، وقد خطر لي ساعتها أن هذا أمر طبيعي، فنحن في القرن الحادى والعشرين، حيث صارت الدنيا غير الدنيا، وأنه ربما كان هذا البيت فخماً ثرياً غنياً بمقياس خمسينيات القرن العشرين وستينياته، لكنني سرعان ما تذكرت أننا كنا خارجين للتو من العصر الملكي بكل فخامته وأبهته وثرائه الطاغي، كما تذكرت أن أي فيللا صغيرة – ولا أقول قصرا- كانت تبدو في أفلام تلك المرحلة تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن العصر كان يسمح لمن شاء

وقدر أن يجعل من بيته آية من آيات الفخامة والأناقة والثراء، وأن بساطة هذا المكان بساطة اختيار لا بساطة تفرضها ظروف العصر ومقتضيات الزمان.

تنقلت بعينيَّ بين الحضور فرأيت الدهشة ذاتها، لا أحد يصدق أن هذا المكتب الخشبي هو مكتب رئيس الجمهورية الذي يلهب مشاعر البشر في كل أرجاء الدنيا، ولا أحد يستطيع أن يتصور أن هذه الستائر البسيطة أو هذه السجادة المتواضعة هي كل ما يحوى المكان من آيات الترف والرفاهية.

انتهت الجولة بين المقتنيات، ولكن الدهشة التي أصابت الجميع لم تتوقف، صحيح أننا كنا قد سمعنا أو قرأنا عن بساطة حياة عبد الناصر إلا أن من سمع أو قرأ ليس كمن رأى أو عايش.

الكمان و الإنسان والوطن

شَجَنٌ يُخَبِّئُهُ الكَمَانْ

قَوسٌ، وَأوتَارٌ، يَدانْ

نَغَمٌ يُنَقِّبُ في الكِيان

مُفَتِّشاً

عمَّا يُخَبَّأ في الكِيانْ

وَيُبَعثِرُ الأيَّامَ في عُمْري

لِيَقنِصَ لَحْظَةً

تَأتِيهِ بالعِطر المُعَتَّق

في قَوَارير الجِنَانْ

وَفَتًى يُسَافِرُ في المَجَرَّاتِ الحِسَان

فَيَصْطَفِيهِ السِّحْرُ

في قَلبِ الحِسَانْ

مَنْ ذَلِكَ الطِّفلُ المُوشَّحُ وَاقِفاً

يُلقِي بِآيَاتِ الكِتَابِ عَلَى المَدَى

فَيَهُزُّ أَسْمَاءَ المَكَانْ

وَالرَّاءُ طَيرٌ في الفَضَاءِ

مُرَاوِغٌ

وَاللَّثغَةُ الحَيرَى تَفِرُّ

وَخلفَهَا يَجري اللِّسَانْ

شَجَنٌ يُخَبِّئُهُ الكَمَانْ

لُغَةٌ تُمَوسِقُ هَذِهِ الأنسَامَ حَانِيَةً

فَيَرتَعِشُ الزَّمَانْ

يَنسَابُ مَاءُ السِّحر

مِنْ عَينَي حَنِينِي

تَستَضِيءُ المُقلَتَانْ

لِلدَّمع نُورٌ عَبقَرِيٌّ

إنْ جَرَى مُتَوَهِّجاً كَالأقحُوانْ

لا لَيسَ بَوحُ الدَّمع حُزناً

بَل حَنِيناً ذَابَ في نهر الحَنَانْ

وَسَعَى إلَى رُوحِي أنَا

نَشوَى بِأنغَامِ الكَمَانْ

من بين كل الآلات الموسيقية، تظل آلة الكمان دائما قادرة على أن تسحرني لا على سبيل الإدهاش والإبهار، بل على سبيل ملامسة الروح، وفتح بوابات الحنين، واستدعاء سيل الذكريات، و التحليق في فضاءات الحلم، بحيث أشعر وكأنها تعيد إليّ إنسانيتي التي توشك أن تضيع وسط ركام الضجيج اليومي الصاخب.

لطالما تمنيت أن أتعلم العزف على هذه الآلة الساحرة المسحورة، لكنها ظلت أمنية على رف الأمنيات المؤجلة.

كثيراً ما أشعر بأن هذه الآلة المدهشة توشك أن تنطق بلسان عبقري مبين، وفي المقابل فإن كل صوت بشري جميل منضبط، يذهبون إلى تشبيهه بآلة الكمان، أذكر مثلاً أنهم كانوا يشبهون صوت المطربة المبدعة ليلى مراد بأنه صوت يشبه الكمان، وهم في ذلك محقون، فصوتها قادر على ملامسة الروح، وفتح بوابات الحنين، واستدعاء سيل الذكريات، و التحليق في فضاءات الحلم، تماما كما يفعل صوت الكمان الساحر.

الموسيقى ليست ترفاً، ولا هي لون من ألوان المتعة النخبوية، التي يحظى بها أولئك الذين يملكون رفاهية الانفصال عن الواقع، أو ليسوا مضطرين إلى اللهاث الدائم خلف لقمة العيش، أو النهوض بأعباء الحياة، بل على العكس تماماً، يمكن أن تكون الموسيقى بوابة الكادحين إلى أن يشعروا بإنسانيتهم

في الوقت ذاته الذي يساعدهم فيه على النهوض بما يحملون من أعباء، ولا أظن أنني بحاجة إلى أن أتذكر ما فعله سيد درويش، حين أطلق تلك الطاقات الكامنة في أغاني المهن المختلفة، وأولاها أغاني العمال والفلاحين، ليقول بموسيقاه وأغنياته، إن الموسيقى أكبر وأهم وأعلى كثيراً مما يظن الكثيرون، وإن العثور على نغمة الوطن وموسيقاه لون عميق من ألوان النضال الوطني.

وردة لأمي

الجَنـةُ سَاعِيـةً تَأتِـي

وَيَسيلُ الكَوثرُ في بَيتِي

وَيَصيرُ النُّورُ يمَامَاتٍ

وَتَجِيءُ الحُورُ زَرَافَاتٍ

لِتُقَبِّلَ رَاضِيَـةً أُمِّي

****

الحِكْمَةُ تُشْرقُ مِنْ صَمتِي

والبَهْجَةُ تَسْكُنُ في صَوتِي

وَتُرَفْرِفُ أَجْنِحَةُ البُشْرَى

وَحَدِيثِى يَتَدَفَّقُ شِعْرَا

إذْ أَهْتِفُ باسْمِكِ يَا أُمِّي

****

الرَّحْمَةُ رَائِقَةً تُقْبِلْ

تَدْعُو وَتُكَبِّرُ وَ تُهَلِّلْ

وَتُبَسْمِلُ مُهجَتُهَا سَبْعَا

وَمَشَاعِرُ صَافِيةٌ تَسْعَى

في دِفءِ حُضُورِكِ يَا أُمِّي

تظل الأمومة دائماً حضن الوجود الدافئ، وكنز رحمتها الحي، وتبقى دائماً الركن الآمن الذي نلوذ به من طوفان الزيف الذي يحاصرنا من كل اتجاه.

هي قلب الحياة وروحها، عطر الجنان وريحها، هي ذلك العمر الجميل الذي يرسم من ذاته أعماراً شتى، وهي العطاء المحض والمحبة الخالصة والتسامح الذي لا يعرف سوى الغفران.

في حياة كل منا ركن خاص يحتفظ فيه بطوفان الحكايا والذكريات والمشاعر التي يتقاسمها مع معنى الأمومة، ويظل هذا الطوفان متأهباً دائماً للفيضان، مع أول إشارة تلمح إلى الأم أو تومئ إليها.

هل يعبر هذا الطوفان عن ذاته في بسمة رائقة صافية دافئة فوق الشفاه، أم يعبر عن ذاته عبر دمعة مترقرقة في العينين، دمعة لا تمتلئ بالماء قدر ما تفعمها المشاعر وتترعها الأحاسيس.

سرير الطفولة الممتلئ بالحواديت، حيث نستزيد من الحواديت لنستزيد من القرب والدفء والمسحة الحانية.

أول يوم من أيام الدراسة، ومزيج البهجة والشجن والرهبة والقلق، وتشبث اليد باليد والعينين بالعينين، بحيث يصبح الكون كله مجسداً في واحدة.

ليالي السهر حول سرير المرض، حيث لا ندري أنتألم مما نحس أم نسعد بفيض الحنان الذي ينساب، ضحكة الشفتين والوجنتين والعينين والقلب في آنٍ معاً مع كل نجاح يتحقق وكل إنجاز يتم، و..... و....، إنه الطوفان الذي نعرف له أولاً ونعجز أن نصل إلى آخره.

تقول لنا المرايا والأحداث وعيون الناس وألسنتهم إننا قد كبرنا، فنعدو ونعدو إلى حضن الأمومة لنكتشف أننا مازلنا وسنبقى صغاراً، يحق لنا أن نخطىء وأن نضعف، وأن نبكي، دون خشية لوم اللائمين.

يقول لنا المنطق والواقع وعلوم الحساب والإدارة والسياسة والاقتصاد إن لكل شيء ثمناً وإن كل أخذ لابد أن يقابله عطاء، فنهرع إلى ظل الأمومة ليتعطل المنطق، وتعلن كل تلك العلوم عجزها عن الاستيعاب، وما ذلك إلا لأن معي الأمومة فوق كل منطق، وعطاءها فوق كل حساب.

كل عام وكل أم في بهجة تستحقها وسعادة تليق بعطائها النبيل.

ملائكة رمضان

كـُـنَّا أطفَــــالاً بُـــــرَءاءْ

نَخطِرُ في أمَـــــلِ وَحَـــيَاءْ

وَالشَّيخُ الرَّمَضَانُ مَهــــــيبٌ

يَأتِي تَصحَـــبُه الخُــــيَلاءْ

يَتَواضَعُ لَكنْ مَوكِــــــبُهُ

ألَقٌ وَجَـــــــلالٌ وَبَهَـــاءْ

وَمَشَاعِــــرُ مُهجَـــةِ أمَّتِنَا

تَتَقَطَّرُ صَفــــواً كَالمَــاءْ

مئذَنَةُ القَــــريَةِ تَسبقُــنَا

وَتَرَاهُ هُـــنَاكَ إذَا جَــــاءْ

فَتُؤَذِّنُ فِــــينَا أنْ هُــــبُّوا

تَتَقَافَزَ كُــــلُّ الأشْــــيَاءْ

القَلبُ، الفَانُوسُ، الذِّكْرَى

المِدفَعُ، وَحَصًى وَضَّــــــاءْ

والعِيدُ يَجِيءُ بصُحــــبَتِهِ

ضَحِـــكٌ وقَمِيصٌ وَحِذَاءْ

وَكَبرنَا، لَكِـــــنْ مَا زلنَا

نَستَدعِي الطِّفلَ إذَا جَــــاءْ

أتى رمضان ... مضى رمضان ، وما بين مجيئه ومضيه عمر من المشاعر المدهشة، مزيج مدهش من أحلام الطفولة وبهجتها، ومسؤوليات النضج وتبعاته، من طزاجة الإحساس بالأشياء في قدرتها على الإدهاش ومحاولة فهم معاني الأشياء وفلسفتها والوصول إلى جوهرها ودلالتها.

صحيح أن رمضان أصبح لمجيئه وذهابه معنى مختلف يعرفه كل من يعملون في ميدان الإعلام عامة، والإذاعة بصفة خاصة، لكن هذا المعنى الجديد الذي يتداخل فيه القلق بالتوتر بالرغبة في تقديم ما يليق بالشهر الكريم بالحرص على ألا تسرقنا مسؤوليات أعمالنا من بهجة الروح بهذا القادم الجميل، هذا المعنى الجميل لا يحرمنا تلك الروح الطفلة التي تسكننا والتي تظل أجمل ما فينا وأنبل ما فينا.

لا أستطيع أن أكمل ملامح رمضان وعيده الصغير الجميل، دون أن تقفز إلى وجداني صورة ميت أبو غالب، حين كانت قرية كبيرة وقبل أن تتحول إلى مدينة صغيرة، ومئذنتها وصوت المؤذن عمي محمد الغايشي والإمام عمي مصطفى اللبودي ، هذا بصوته الندي الجميل في المغرب أو في تواشيح السحر، وذلك في صوته الكريم المتواضع في صلاة الفجر، تطاردني صورة السوق الواسع الذي يتوسطه الجامع الكبير وقد تحول إلى ساحة للعيد، وقد بدا لعيني عالماً مكتمل البهجة واسع الأرجاء.

لا أظن أني وحدي في ذلك ، يقيني أنك أنت أيضاً أيها القارىء الكريم تحمل قريتك أو مدينتك أو حيك الصغير في قلبك، وتتأهب لأول هتفة من رمضان أو أول ندهة من العيد لكي تطلق الطفل الذي بداخلك يمرح في تلك الأجواء مجدداً. قافزا على كل هذا العمر الذي مر وتلك السنوات التي توالت، فلنملأ الصدر بذلك الهواء الطازج الرائق البهيج عله يزيح عن الصدر بعضاً مما علق به من دخان الأيام وغبار الأحداث، ولنفتح أفقاً للبهجة، وكل عيد ومصرنا أكثر تعرفاً على ملامحها الأصيلة وانحيازاً لهويتها الرائقة.

ملائكة رمضان (٢)

وَكَانَ يَسِيرُ بَينَ النَّاس، كلٌ طَـالِبٌ كُوبَهْ

وَمَاءُ الوَردِ في الإبريق وَالدَّعَوَاتُ مَسْكُوبَةْ

يَصُبُّ المَاءَ في الأكْوابِ بالأحلامِ مَصْحُوبَةْ

لَهُ في الأرض أنْ يَسعَى، لَهُ الخَيرَاتُ مَكتُوبَةْ

***

وَكَانَتْ سَاقُهُ العَرجَاءُ تُهدِي النَّاسَ بَهْجَتِهِ

يُحُبُّ النَّاسُ مَقْدمَهُ، يُحِبُّ الخَلقُ خُطوَتَهُ

وَيعشَقُ ذَلكَ المِحرَابُ بعدَ الصَّومِ طَلعَتَهُ

وَمَنْ لا يَشتَكِي ظَمَأً يَتُوقُ يَذُوقُ نَفحَتَهُ

***

وَكَانَ البشْرُ في العَينَين يُنبي عَنْ سَمَاحَــتِهِ

وَكَانَ الصَّمتُ مِن سِيماهُ يَسري وَسطَ سَاحَتِهِ

أَرَاهُ الآنَ في وَلدٍ أُسَــــــائِلُ عَنْ وَضَاءَتِهِ

فَهلْ يَنسَاهُ هَذا القَلــــبُ يَسهُو عَنْ حِكَايَتِهِ؟!

إنه رمضان، يفتح أبواب الرحمات الإلهية، والفيوضات الربانية، التي تطمئن القلب، وتسمو بالروح، وتعد المؤمن بالرضوان.

إنها أيام رمضان ولياليه، تفتح أبواب التذكار لتستخرج من الذكريات ما يؤنس النفس ويبهج الوجدان.

وإن أنس لا أنسى حلقات تجمعنا المضيء في المسجد الكبير بميت أبو غالب، وقد توسطنا عالم جليل لعله كان الأستاذ الدكتور متولي البساطي الذي سيصبح فيما بعد عميدا لكلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالمنصورة، كنا نتحلق مبتهجين بصوم نهارنا الذي مر، وري إفطارنا الذي بل عروق الروح.

وكان من أبهج ما يطالعنا في جلستنا هذه، ذلك الوجه الباسم والقلب الطيب الذي يمر صاحبهما بيننا، وقد حمل إبريقه المليء بالماء الممتزج بماء الورد، فتمتد أيدينا إلى أكوابه، لا ظمأ بل طلبا للبهجة والبركة والتماسا لمذاق مائه الفريد.

كان إبريقه طقسا رمضانيا فريدا، وكانت روحه جزءا من الرووح الرمضانية المبهجة الطيبة النقية.

هل كانت خطواته، وهي تتنقل برشاقة بين الجالسين، تمنحه بهجة كتلك التي تمنحها أكواب مائه للشاربين؟ !

وإلا فمن أين كان يجيء بهذه الابتسامة السمحة، ومن أين كان وجهه يجيء بهذا النور الوضيء؟!!

إن صورته الملائكية تلك لا يمكن لها أبدا أن تتوارى وراء آلاف الصور التي تسكن الذاكرة،ولا تسقط أبدا في بئر الذكريات العميقة، فلها إطلالة جديدة مع مطلع كل رمضان جديد، تدعو لصاحبها بالرحمة والمغفرة والرضوان، وتدعو لأبنائه بأن يكرمه الله فيهم، بقدر ما روى ظمأ الظامئين وأبهج أرواح الشاربين.

ملائكة رمضان (٣)

صَوتُ العَاشِـــرِ مِنْ رَمَضَـــــانْ

يَهْدِرُ في سَـمْـعِ الأزْمَـــــانْ

هَتْفَةُ حَـقٍّ مِــنْ عِزَّتِهَـــــــا

أصْغَى وجـــدَانُ الأكـــوَانْ

هِي ذِي لَحْظَةُ مَجدٍ جَـــاءَتْ

حَتَّى يَعْـــــتَدِلَ المِـــيزَانْ

إيقَاعُ الأقـــــــدَامِ تَعَـــالَى

فَوقَ الصِّفَّةِ كَالبُركَـــــانْ

هُوَ بُركَــــانُ الثَّأرِ وَأسْمَـــى

يَسبقُـــهُ تَكـــــــبيرُ أذَانْ

المَاءُ تَعَــــالَى مُبتَهِـــــجاً

فَورةُ شَعْـــبٍ أمِ طُوفَـــــانْ

وَرمَالُ الصَّحْــــــــرَاءِ تُلَبِّي

هَذَا وَقتُ العِــزَّةِ حَـــــانْ

صَوتُ العَاشِــر مِنْ رَمَضَـــــانْ

يَهْدِرُ في سَــمْــع الأزْمَـــــانْ

هؤلاء هم أنبل ملائكة رمضان، أولئك الذين أحبوا الحياة فضحوا بالحياة حتى تستقيم الحياة، الذين عشقوا النور فوهبوا أعمارهم من أجل أن يسطع النور، الذين امتدت أعينهم إلى ما وراء الزمان، وتاقت أرواحهم إلى فردوس الرحمن، أولئك الذين قايضوا الخلود بأعمارهم المحدودة الفانية ، وأبوا إلا أن يرفع الوطن هامته عالية تطاول السحاب.

لم يكن العاشر من رمضان يوماً عادياً كأيام الزمن، ولم يكن صناعه بشراً كالبشر، كانت لحظة استثنائية في التاريخ لا يليق بها إلا ملائكة استثنائيون.

كيف احتمل ماء القناة الرقراق طوفان المجد الهادر الذي فجرته هذه الجموع الحاشدة، وهى تعيد إلى التاريخ مساره الصحيح؟!

وكيف احتملت حبات الرمل التي لوحتها الشمس حتى أوشكت أن تمنحها سمرة وجه مصرى الحبيب هذا الزلزال الذي صنعته هذه المواكب المنطلقة، وهي ترد إلى الحق سدة عرشه التي سرقها الزيف والبهتان في غفلة من النواميس الكونية الخالدة؟!

كيف طارت هذه الأرواح نوارس فضة، تتسابق في سعيها صوب جنات الرضوان، وكيف اتسع الفضاء لأسراب النوارس هذه في علوها السامي وسموها العالي الرفيع؟؟!!

كيف قدر لكل بيت مصري أن ترصع جبهته صورة شهيد خالد، أو مقاتل بطل، دون أن تخر البيوت تحت وطأة هذا الجلال الفريد؟!

إنها أيام المجد الخالدة السامية الجليلة تدق أبواب أرواحنا مجدداً، علها توقظ الهمم التي فترت، وتستعيد الثقة التي اهتزت وتجدد الإصرار على صنع المعجزات.

إنه ذلك الموكب الجليل من بدر الإسلام الكبرى إلى بدر مصر المعاصرة، درب تجلله تلك الأسراب الجليلة من أرواح الشهداء التي تمتد واصلة بين الأرض والسماء، بين بدر وبدر، بين الحياة والجنة.

نعم هم أنبل ملائكة الشهر الكريم، وهم أكرم ملائكة الشهر النبيل!!

ملائكة رمضان (٤)

خَفْقُ الجَوانِح في السَّحَرْ

في مُهْجَةِ الشَّهْر الأغَرّ

يَرقَى بنَا صَوبَ السَّمَا

لِنَرَى المَدَى مُتَبَسِّمَا

وَنَرَى الفَضَاءَ حَدِيقَةً

وَنَرَى المَبَاهِجَ تَنْتَشِرْ

***

خَفْقُ القُلُوبِ المُؤْمِنَةْ

في نَبْرَةٍ مسْتَيقِنَةْ

يَعلُو وَيعلُو مُشْرِقَا

مُسْتَبشِراً مُتَألِّقَا

النُّورُ يَمَلأُ كَونَهُ

بالبُشْرَيَاتِ البَيِّنَة

***

خَفقُ القُلُوبِ وَقَدْ عَلا

وَمَضَى مَضَى صَوبَ العُلا

صَحِبَ الفُؤادَ مُحَلِّقَا

مُتَسَامِياً مُسْتَوثِقَا

الكَونُ قُرآنٌ بَدَا

وَالخَفقُ ثَغرٌ قَدْ تَلا

السحر ... حديقة الخاشع، جنة المتأمل، معراج الطامح إلى الصفو الحق والحق الصافي ، وبرهان الباحثين عن أصدق البراهين.

وإذا كان للأسحار فضل خاص في ليالي العام كلها، فإن لها في ليالى رمضان أفضالاً وأفضالاً، ترق القلوب حتى لتوشك أن تصير هواء، وتلطف الأرواح على لطفها حتى لتوشك أن تحمل الجسد معها في معراج كونى فريد.

هذا السحر الجليل يلقي على الأشياء كلها جلالاً فوق جلالها، ويمنحها جمالاً فوق جمالها، فيجعل لألف ليلة وليلة ولأحسن القصص وللمسحراتى بهاء خاصاً ترتعش له القلوب وهو ينطلق من الراديو الجميل الذي يتوسط العائلة، ويجعل لصوت عم "محمد الغايشي" قدرة مدهشة على النفاذ إلى القلوب، وهو يستغرق في تواشيح ما قبل الفجر في ليالى رمضان، ولأن بيتنا كان قريباً جداً من الجامع الكبير، فقد كان صوته يصل إلىَّ رائقاً نقياً، يؤنس ذاتي، ويهز وجداني، ويحملني على جناحين من الجمال والجلال.

هذا السحر الذي علمته أن يصغي إلىّ، وعلمني هو أن أصغي إلى ذاتي، واعتدنا معا على أن ندخل في حوار لا ينتهي حول كل أشياء يومنا الذي مضى ويومنا الذي يوشك على أن يجىء، وأن نحاول معا أن نلمس قلب المعاني والأشياء.

هذا السحر الذي دعاني إلى أن أرتقي بإنسانيتي إلى أبعد نقاط الانطلاق، وفتح لي السبل لكي أسمو بها إلى أعلى نقاط السمو، وألا أستغرق في التفاصيل الصغيرة التي تشدني إلى الأرض، وتحد من قدرتي على التسامي.

هذا السحر الذي جعل لخطواتي القليلة إلى المسجد بهاء جليلاً عرفه صباي ومطلع شبابي الباكر، وحرمته بعد ذلك حرماناً قاسياً.

مازالت نبرة عم "مصطفى اللبودي" في تلاوة الآيات في ركعتي الفجر تسكن وجداني وتتردد في أذنيَّ، ومازالت حلاوة الدقائق باقية في قلبي، ومازال توقي إلى السحر الصافي ممتداً، فمازلت أتوق إلى حديقة الخاشع، وجنة المتأمل، ومعراج الطامح إلى الصفو الحق والحق الصافي ، وبرهان الباحثين عن أصدق البراهين.

فضيلة أم رمادية؟!!

وَتَبقَى قَامَةُ الأشجَار دَومَا

وَلا تَعنُو لِفعلِ الرِّيح يَومَا

تُحَلِّقُ في فَضَاءِ اللّهِ حُرَّةْ

وَتَسكُبُ في عُقُولِ النَّاس فِكْرَةْ

وَتمحُو مِن قُلُوبِ النَّاس وَهْمَا

وَتَبقَى قَامَةُ الأشجَار تَبقَى

تُحَلِّقُ حُرَّةً في الجَوِّ تَرقَى

تُعَلِّمُنَا صُمُودَ الشَّامِخِينْ

وَتُلْهِمُنَا شُمُوخَ الصَّامِدِينْ

وَتُعْلِى حِينمَا تَختَالُ حَقَّا

وَتَبقَى قَامَةُ الأشجَار عُليَا

وَتُبْدِعُ مِنْ ثَبَاتِ الرُّوح دُنيَا

لَهَا في الأرض جِذرٌ مستَطيلٌ

وفي الآفَاقِ حُلمٌ مُستَحيلٌ

لَهَا يَأتِي إذَا نَادْتهُ : "هَيَّا"

كلما امتد جذرك في الأرض ازداد فرعك شموخاً صوب السماء، حقيقة تعلمنا إياها الطبيعة كل يوم، إلى حد أن بعض الأشجار تعتبر الآرض مرآة لها فطولها الذي فوق الأرض مساوٍ تماما لطول جذرها الضارب في أعماق التربة، وكلما ازداد هذا هبوطاً ورسوخاً وتعمقاً، ازداد ذاك علواً وسموقاً وارتفاعاً.

هذا ما تعلمنا إياه الطبيعة، أما التجربة الإنسانية، الضاربة في أعماق التاريخ، والمتجددة تجدد الحياة الإنسانية، فإنها تطرح على عقلي سؤالاً أتمنى لو أجبنا عنه معاً:

متى يكون الموقف الوسطي فضيلة إيجابية؟ ومتى يصبح انسحاباً سلبياً.

إذا كان اليونانيون صاغوا ذلك المعنى العميق "الفضيلة وسط بين رذيلتين"، وجاء العرب بعدهم فزادوا المعنى عمقاً وتأكيداً، فالشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والكرم وسط بين البخل والسفه، و.... ، و.... إلخ ، أقول إذا كانت الفلسفات أكدت على فضيلة الوسط الذي لا يتطرف يميناً ولا يساراً، ولا يرى بعين واحدة ما يحبه وينحاز إليه، ويغلق العين الأخرى عن رؤية ما ينحاز ضده ولا يحب أن يراه، فهل كل وسط هو هذا ؟ وهل كل وسطية هي تلك؟

أم أن هناك الوسط الرمادي الذي يختبيء وراءه صاحبه عجزاً

عن اتخاذ موقف، وهروباً من الانحياز إلى الحق، أو الجهر بالحقيقة، وانسحاباً من تحمل تبعات الموقف الذي يتبناه؟

متى تكون الوسطية فضيلة إيجابية بالغة الشجاعة؟ ومتى يكون الموقف الوسطي رذيلة سلبية بادية الجبن؟

متى تكون الوسطية رؤية ثاقبة بالعينين معاً، وتقديراً دقيقاً بالعقل والقلب معاً؟ ومتى يكون الوسط إغلاقاً للعينين عن أن تريا، وحجباً للعقل والقلب معاً عن أن يقدرا الأمر حق قدره؟

متى يكون الوسطي بالغ العدالة ساطع الإيجابية؟ ومتى يكون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؟

أسئلة تطرحها علينا الخبرة الإنسانية الطويلة، والمواقف الإنسانية المتجددة، ولا أظن أنه يكفي أن نجيب عنها بالكلمات، وأننا بحاجة دائمة لأن نمتحن ذواتنا بالمواقف لا بالأقوال.

لكم مصركم ولى مصري

يَا مِصْرُ قَلبي مُسْتَهَامْ

خَفَقَاتُهُ شَوقُ اليَمَامْ

تَوقُ النُّسُورِ إلَى المَدَى

وَحَنِينُ رُوحٍ لِلهُدَى

صَوتِي نِدَاءٌ صَامِتٌ

مِنْ أينَ يَأتِيهِ الكَلامْ؟

***

يَا مِصْرُ قَلبي مُسْتَهَامْ

ظَبْيٌ يَفِرُّ مِنَ الزِّحَامْ

لَكَأنَّهُ مَاءٌ جَرَى

مُتَرَقْرِقاً لَمَا سَرَى

أَضْحَى وَضُوءاً نَيِّرَا

فِي رَكْعَتَيْن مِنَ القِيامْ

يَا مِصْرُ قَلبِي مُسْتَهَامْ

فِي العِشْقِ طَابَ لَهُ المُقَامْ

لا تُوجِعِيهِ مَحَبَّةً

ظَلِّي سَمَاءً رَحْبَةً

لا لا تَضِيقِي، إِنَّهُ

فِي ظِلِّ صَبْوَتِهِ أَقَامْ

يلومونني في محبتها، ويصفون هذه المحبة بأنها إفراط في رومانسية لا تليق بالواقع ولا يليق بها الواقع، ويؤكدون أنه حب من طرف واحد؛ فهي لا تبادلني المحبة، ولا تشعر حتى بعشقي لها، وينصحونني بأن أتعقل أو أن أقتصد، وأن أهبط من فضاء الخيال الرومانسي الجميل إلى تضاريس الواقع وتفصيلاته الموجعة، لأرى ما يراه الآخرون وأشعر بما يردده الآخرون.

وأنا أصدق نصائحهم وأقدر مشاعرهم تجاهي وحرصهم عليَّ، لكنني لا أستطيع، ربما لأنني أرى ما لا يرون، وأشعر بما لا يشعرون وأعرف عنها ما لا يعرفون، وربما لأني حتى لو رأيت ما يرونه هم ولو شعرت بما يشعرون به هم، فلا أستطيع أن أقتصد في محبتي أو أن أصرف عنها هواي.

للناس فيما يعشقون مذاهب، نعم، وهي مذهبي في العشق.

لست مصابا بالماسوشية، لكني لا أملك أن أحول القلب عنها، توجعني بالمحبة كما توجع كثيرين غيري، لكني لا أملك تغييرا لمجرى نهر محبتها، ولا لتهدئة اندفاع تيار المحبة هذا.

هل أرضى بكل ما تصنعه؟ يقيناً لا ، لكن عدم رضاي لا يجمح طوفان محبتي.

هل أغمض عيني عن قسوتها على أكثر محبيها محبة لها؟ يقيناً لا ، لكني لا أفلت من قبضة المحبة الآسرة.

يقولون لي : "المحب يغار على حبيبته، ويغضب منها ، ويغضب لها ، ويثور من أجلها" ، فأقول : "وهل أصنع أنا غير ذلك؟!!"

حالة مستعصية في العشق أنا ، لكنها هي مستحقة لهذا العشق وأكثر. فيا من تلومونني في محبتها ، حاولوا أنتم إن استطعتم ، فأنا أعلم أنكم غارقون في محبتها حتى وأنتم تنصحونني بالاقتصاد فيها ، ويا من تقتصدون في المحبة لا أقول لكم إلا : لكم مصركم ولي مصري.

الطوفان المرعب

وَنَمضِي،

وَتَمضِي بنَا الجَامِعَة

تُطَاولُنَا القُبَّةُ الرَّائِعَةْ

وَنجَري علَى عُشْبِ أشْوَاقِنَا

وَنُخفِي هَوَانَا بأورَاقِنَا

وَنَسترُ أسرارَنَا الذَّائِعَةْ

فَفِي صُحبَةِ البَحر جاءَتْ فَتَاةٌ

وَمِنْ قَبضَةِ القَهر فَرَّتْ حيَاةٌ

وَهَذَا الجَنُوبيٌّ قَد جَاءَ يَسعَى

وَيسعَى،

وتسعَى الأمَانِي مَعَهْ

صَعِدنَا إِلَى صَهْوَةٍ مِنْ نُجُومٍ

وَسِرنَا عَلَى مُهْرَةٍ مِن غُيومٍ

وَلمْ يَسأَلِ النَّجْمُ لَمَّا صَعِدنَا:

جُنَيهَان في الجَيبِ أمْ أربَعَة؟

***

مع أنسام شهر رمضان المعظم أتذكر إحساسي المشوب بالكثير من الترقب والقلق و الذي بدأ مع بدء رحلتي مع البرامج الرمضانية القصيرة التي تذاع على مائدة الإفطار.

ومن بين كل هذه البرامج، يقفز أمامي الآن برنامج بذاته، و يريد أن يحدثني عن ذاته أو يريدني أن أتحدث عنه.

بدت الفكرة مجنونة في البداية: لماذا لا أقدم برنامجا خاصاً، يكون ضيوفه جميعاً من بين زملائي في دفعة كلية الإعلام عام ١٩٨٦، ثم بدأت الفكرة تنتقل شيئاً فشيئاً من حيز الجنون إلى دائرة التعقل، ودراسة ومدى صلاحيتها لتقدم برنامجاً متميزاً، ثم انتقلت إلى دائرة التفصيلات الدقيقة، هل أسمي البرنامج: "هذه دفعتي"؟ أم أسميه "قبة الجامعة"؟ أم أسميه "الدفعة ٨٦"؟

كانت الساحة ملأى بخريجي هذه الدفعة المذهلة، الذين تفرقت بهم المذاهب والاتجاهات من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، وتنوعت انحيازاتهم تنوعاً غير قابل للتصديق، فضلاً عن أن عدداً غير قليل منهم قد قفز قفزات هائلة، من مذهب إلى مذهب، ومن انحياز إلى انحياز، ومن ولاء إلى ولاء.

كنت أنظر إلى ساحة الصحافة فأرى كتاباً كباراً يملؤون الساحة، وقد وصل عدد كبير منهم إلى رأس الصحف أو المؤسسات الصحفية، فمن ياسر رزق إلى حمدي رزق ، ومن

مجدي الجلاد إلى مجدي شندى، ومن عماد حسين إلى عادل السنهوري، ومن الأنور الهواري إلى نبيل الطاروطي، ومن محمد خير إلى محمد رضوان، ومن علي عطا إلى عبد الحكيم الأسواني، ومن نجوى طنطاوي إلى حورية عبيدة، ومن محمد عز الدين إلى حمدي شفيق ومن أماني قاسم إلى نبيل السجيني .... إلى .... قائمة أطول من أن تحصى أو يحاط بها.

ثم نظرت إلى مقدمي البرامج التليفزيونية ومخرجيها، فوجدت المقام يضيق عن الحصر، فمن جميلة إسماعيل إلى يسري فودة، ومن عمرو أديب إلى مجدي لاشين، ومن أسامة البهنسي إلى طارق صلاح الدين، ومن طارق الشامي إلى هانىء فرحات، ومن خالد سالم إلى المعتز بالله محمد، ومن محمد عبد الجواد إلى مدحت عاصم، ومن هبة راضي إلى حنان الكومي، ومن سعيد الشيمي إلى ناصر عبد السلام، ومن محيي سعد إلى مجدي البنداري، ومن طارق عبد الفتاح إلى خالد جرار، و... و... ليست الساحة بأقل رحابة من الصحافة.

وهناك من تنازعتهم الجامعة أو الفن أو الإذاعة أو المؤسسات الدولية وفي مقدمتهم د. أيمن الشيوي، و د. سعيد الغريب ود. هالة العسيلي، و د. سحر أبو القاسم، و د. خيرت عياد، و أحمد عبد الرازق، والأستاذة منى ياسين، والأستاذة إيمان بهي الدين، وحسين جبيل، والإذاعيتان صفية صبري ولمياء شرف الدين،

و...و.... ممن أثق أنهم يستحقون أن تذكر أسماؤهم لو اتسع المقام .

وفجأة وجدت نفسي أمام هذا الطوفان المرعب، فكانت التجربة المدهشة.

كرنفال التساقط المَلكوتي النبيل

يَومٌ خَريفِيٌّ الإِهــــابْ

فِي قَلبهِ مَعـــــنًى مُــذَابْ

هذِي وُريقاتٌ هــــوتْ

وَمَضَتْ يُودِّعُهَا الشَّــبَابْ

أَمْ كَرنَفَالُ مَــــوَدَّةٍ

يُهدِي الزُّهُورَ إِلَى التُّرَابْ

وَالشَّمسُ خَجلَى عَانَقَتْ

في لِينِهَا وَجهَ السَّحَــابْ

تَغْشَى الطَّبيعَةَ هَــدْأَةٌ

فِيهَا مِنَ السِّرِّ اقْــتِرَابْ

السِّرُّ يُوشِكُ أنْ يَلُوحَ

وَأنْ يُرَى خَلفَ الحِجَابْ

فُتِحَتْ مِسَاحَاتُ التَّأمُّلِ

وَاخْتَفَى وَمضُ السَّرَابْ

وَالكَونُ صَارَ قَصِيدَةً

فَاقْرَأْ مَضَامِينَ الكِـتَابْ

بيني وبين الخريف سر خفي وعشق قديم، تستطيع وأنت مطمئن أن تقرر أني أحد مريديه المخلصين وأحد عشاقه المتيمين، أبداً لم أنظر إليه باعتباره فصلاً فقيراً لأن أشجاره تتخلى عن أوراقها، فضلاً عن أزهارها التي اختفت منذ حين، بل أراه واحة للتأمل الهادئ والسكون المتأمل، لا هو يلقاك بشمس الصيف المغرورة المتغطرسة، ولا بأزهار الربيع المختالة المتباهية، ولا هو يجبرك على أن تتحمل قسوة الشتاء البالغة، حتى تلك الأوراق المتساقطة أراها تضفي على الكون في تساقطها جواً كرنفالياً نبيلاً، يحدثك عن فلسفة التجدد وحكمة الإيثار، وينبئك عن أن الحياة مستمرة في تجددها، ويعلمك الكثير من دروس التواضع النبيل.

إذا كان الربيع فتاة مراهقة تمشي مختالة بجمالها الصارخ وتزهو بحسنها المتدلل، وتسرق أعين الناظرين وهي تخطر جيئة وذهاباً، وإذا كان الصيف فتى منطلقاً في فتوته يعدو دون أن يوقفه تعب أو ينال منه إرهاق، وإذا كان الشتاء شيخاً نال منه الزمن ما نال، فإن الخريف شاعر ناضج وفيلسوف رجل وحكيم رشيد، لديه من الوقت ومن القوة العقلية والبدنية ما يسمح له بالتأمل وصولاً إلى إدراك المعنى وفهم المغزى واستبصار الحكمة.

ما الذي تفكر فيه تلك الورقة الساقطة من عرشها الوثير على كتفي الشجرة السامقة إلى أمها الأرض متخلية عن مكانها لأخت لها سوف تطل بعد حين؟

وما الذي تفكر فيه أنت وأنت تشهد كرنفال الأوراق المتساقطة في حمرتها حيناً وصفرتها أحياناً، وهى التي طالما ملأت الأفق بسطوعها الأخضر المختال؟

أنا شخصياً لا أشعر بأني بعيد عن هذه المشاهد إلى الحد الذي يسمح لي برؤيتها والتفكير فيها، بل أشعر أني أنا ذاتي أصبحت جزءاً أصيلاً من هذا المشهد الجليل، يسري فيَّ ما يسري فيه ويجرى على ما يجرى عليه.

إنه رمضان

هَذَا شَرَابٌ مُستطَـابْ

من أينَ تُقبل يَا شَـرَابْ؟!

إنِّي لأُصْبحُ صَــائِماً

وَ الصَّومُ نُعمَى لا عَـذَابْ

مِنْ أينَ تَأتِي إنَّنِـــي

أرجُوكَ في يَومِ الحِسَابْ

أرجُوكَ شَربَةَ رَحْمَـةٍ

تُسْقَى بأكوَابٍ عِــذَابْ

تَأتِي ببُشْــرَى نَيلِنَا

لِلفَظت تتوز وَالـرَّيانُ بَابْ

هَذَا شَرَابٌ مُستطَـابْ

من أينَ تُقبل يَا شَـرَابْ؟!

أنَا لا أُريدُكَ قَادِمـاً

بالرِّيِّ مِنْ قَلبِ السَّحَابْ

إنِّي أُريدُك حَــامِلاً

بُشْرَى بعفْوٍ و اقْـتِرَابْ

عجبا لهذا الري النابع من ذلك الظمأ، عجبا لتلك الأنسام الآتية من قلب القيظ لتلطف أجواء الروح وسط هجير الحياة، ما الذي يحمله رمضان من سر؟! وما الذي يختبىء فيه من معنى؟! كيف تصير الحياة غير الحياة، فقط حين تخرج علينا فتوى بدء الشهر الكريم؟!!

كيف تخرج تلك الأسراب من طيور الخير لتنتشر في الطرقات والشوارع والمساجد والمباني، وكأنها أطلقت تواً من أسر طويل؟!

هذا طائر الري يقف على جانب طريق المسافرين حاملاً شربة ماء أو كوب عصير لا ليبدد بها ظمأ النهار، بل ليبلل بها غصن الروح، ويعيد إلى القلوب ندى الخير الجميل.

وهذا طائر البر يحمل في يده وتراً من التمرات، لا ليذهب بهن جوع الساعات، بل ليطمئن الأنفس إلى أن تيار الكرم ما زال يسري في أعصاب الأمة، حين ظن الجميع -وأولهم أبناؤها- أن الحرائق المشتعلة هنا وهناك قد أحرقت ذلك التيار وخنقته ومنعت عنه أنفاس الحياة.

وهذا طائر الكلم الجميل، وقد انطلق لسانه هنا وهناك، مذكراً الأسماع والسرائر بأن الشهر كريم وبأن خالقه هو الأكرم.

وهذه طيور المودة، وطيور التسامح، وطيور التصافي، وطيور الشفافية والتحليق، وقد شكلت كلها سحابة طير، تهيء في لحظاتٍ عرش ارتقاء، ليصعد فوقه القلب، وتعتليه الروح، وترقى عليه النفس إلى حيث لا يعرف إلا من ذاق.

لم تعد الأيام هى الأيام، ولم تعد الساعات هي الساعات، ولم يعد البشر هم البشر، كل ذلك لمجرد أن صوت الفتوى قد انطلق معلنا بدء هذا الشهر الكريم، حتى نحن أنفسنا لن نعد كما كنا منذ أيام، بل منذ ساعات، بل دقائق!!

رمضان لا يدعونا إلى أن نغض الطرف عن قضايانا الكبرى، ولا يحملنا إلى لون من ألوان الغيبوبة الصوفية التي تعطي ظهرها للحياة بتفاصيلها ومشكلاتها وقضاياها، إنما هو يدعونا إلى أن نتعامل مع تلك القضايا بروح مختلفة، وإلى أن نراها من زاوية مغايرة، وإلى أن نبتكر لمواجهتها أساليب مبتكرة، فالروح صارت أقدر على الإبصار، والقلب أصبح أقدر على الارتقاء، والنفس صارت أبعد عن الضجيج والصخب، فهل نحن مستلهمون رمضان؟! وهل نحن فاهمون للمعنى، ومدركون للسر العظيم؟!!

لا تنكروا البهجة ولا تستنكروها

هل فقدنا القدرة على الابتهاج؟

سؤال أراه شديد المنطقية في لحظتنا هذه، فهي أيام العيد، بكل ما تحمل لأنفسنا من وعد بالبهجة، وما تجدد في أرواحنا من ذكريات السعادة، ولكننا غارقون في الحيرة والالتباس إن لم يكن في الحزن والأسى.

البعض يرى البهجة سذاجة، والبعض يعتبرها بلادة، والبعض يذهب إلى أبعد من ذلك بكثير فيعدها خيانة، أما أنا فأعتبرها فناً مهما من فنون الحياة، ف الذي لا يتقن فن البهجة لا يتقن فن العمل، و الذي لا يجيد تذوق البهجة لا يعرف شيئاً حتى عن فن النضال في سبيل المبدأ والقيمة والغاية السامية.

والذين يتصورون أنهم بإنكار البهجة أو باستنكارها يصبحون أكثر إخلاصاً للمعاني العميقة والقيم السامية واهمون، فهم في الحقيقة يسهمون في إظلام الحياة وفي إفقادها أى معنى مشرق جميل، ولقد سبقني الشاعر العبقري إيليا أبو ماضي إلى تأكيد هذا المعنى العميق، ليس فقط حين دعا كلاً منا هاتفاً "كن جميلا تر الوجود جميلا" ولكن أيضاً حين أكد أن من يرى الحياة عبئاً ثقيلاً هو ذاته عبء ثقيل على الحياة:

هو عبءٌ على الحياة ثقيل من يظنّ الحياة عبئا ثقيلا

والذي نفسه بغير جمال   لا يرى في الوجود شيئا جميلا

لا أحد يطالبك بألا تتفاعل مع ما تشهده الحياة من مآس، ولا أحد يسوغ لك ألا تناضل من أجل أن تجعل الحياة أصدق وأنقى وأجدر بأن تعاش، لكن هذا كله لا يمكن أن يبرر لك ألا تبتهج حيناً وألا تبهج من حولك أحيانا، وألا تسعى دائماً إلى أن تضفي على الحياة لمسة من البهجة، وألا تعرف كيف تتذوق البهجة وتصنعها.

هل أنت بحاجة إلى أن أذكرك بأن من شرع لنا الأعياد سبحانه قد جعلها مواسم للبهجة وحرم علينا فيها الصوم والامتناع عن متع الحياة ومباهجها وملذاتها؟!

وهل أنا بحاجة إلى أن أؤكد عليك مجدداً أن المبتهجين والقادرين على تذوق البهجة وصناعتها ليسوا سذجاً ولا خونة، بل هم موهوبون في فن الحياة موهبة حقيقية عميقة، وأنهم أقرب إلى جوهر الإنسانية من أولئك الممتنعين بحجة الإخلاص الشديد لآلام الإنسانية وبهجتها؟

ابتهجوا يرحمكم اللّه، واصنعوا البهجة أثابكم اللّه، ولا تنكروا البهجة ولا تستنكروها أبهج اللّه أرواحكم ..... ومرة أخرى "كل عام وأنتم والأمة بخير وسعادة وابتهاج".

العذب والملح بين النيل والقناة

مِلحُ البَحْر وَعَذْبُ النِّيلْ

عَزمٌ وَجِهادٌ وَهَدِيلْ

مَجدٌ تَرسُمُهْ الأجيَالْ

فَخرٌ يَصْنَعهُ الأبْطَالْ

تِينٌ وَكُرُومٌ وَنَخِيلْ

مِلحُ البَحر إذا يَتَحَدَّى

يَجدُ بلادِي تَرسُمُ مَجْدَا

وَيَرَى الهِمَّةَ في الأبنَاءْ

وَيَرَى الأمَّةَ في خُيَلاءْ

تَصْدُقُ قَولاً، تُنْفِذُ وَعْدَا

عَذبُ النِّيلِ يَبُلُّ الرُّوُحْ

وَيُبَلْسِمُ آثَارَ جُرُوحْ

يَجْرِي في الشَّرْيَان حيَاةْ

عَذبُ النِّيلِ نَعِيمُ اللّهْ

جَلَّ المَانِحُ وَالمَمْنُوحْ

عجيب هذا الارتباط المذهل بين تاريخ مصر ومائها العذب والمالح، بحيث تستطيع وأنت مطمئن أن تؤكد أن صفحتي النيل والقناة كانتا دائما أزهى الصفحات التي يكتب عليها المصري تاريخه العريق والحديث، بل ويستشرف عبرهما مستقبله المنشود، لن أعيد عليك كلمات هيرودوت ولن أجدد الجدل الشهير حول كون مصر هبة للنيل أو هبة للمصريين أو تفاعلاً فريداً بين النيل في تفرده الجليل والهمة المصرية في فرادتها الاستثنائية، ولن أحدثك عن محمد على وقناطره، ولا عن سعيد وإسماعيل وقناتهما، ولا عن عبد الناصر وزعامته الممتدة من السد إلى القناة، ولا حتى عن فاروق الباز وواديه المقترح.

ولكنى سوف أحدثك حديثاً آخر عن المصري الذي يعلمنا من جديد درس الإحساس بالمشروع القومي والالتفاف المذهل حوله من أجل أن يخوض التحدي وينجح فيه.

لطالما قلنا صادقين : إن قضية المصريين ليست قضية قدرة، وإنما هي قضية إرادة و إيمان ، إرادة سياسية صادقة، وإيمان شعبي عميق، وإن قدراتهم كانت مكبلة بغياب الإرادة السياسية للفعل والإنجاز.

نعم قلنا كثيرا: جربوا عزيمة المصريين وقدرتهم وأنتم مطمئنون، فهم إذا صدقوا وآمنوا بالتوجه والإرادة أذهلوكم بقدرتهم المدهشة على الإنجاز.

افتتاح الفرع الجديد لقناة السويس ليس مجرد مشروع كبير يضاف إلى قدرات مصر الاقتصادية، وإنما هو في جوهره تأكيد على ذلك المخزون الرهيب من الطاقة والقدرة في الكيان المصري، فاصدقوا مع مصر واثقين أن المصريين لن يخذلوكم أبداً، وأوسعوا أفق الحلم ولا تقزموا الأحلام ولا تختصروها، وسوف تكونون أنتم أول المفاجئين بقدرة المصريين على تحويل الأحلام إلى حقائق.

ليكن الفرع الجديد لقناة السويس بداية الحلم وليس منتهاه، ولتكن أحلامنا على قدر ثقتنا في همة المصريين وقدرتهم اللامحدودة على الإنجاز حين يصدقون ويؤمنون.

ولنفتح الأبواب أمام المصريين لكي يلووا عنق الماء ويقهروا ملوحته، في الوقت الذي يدللون ماء آخر لينعموا بعذوبته.

لا تفقد ظلك .. لا تخسر ذاتك

قُلتُ لِظِلِّي ذَاتَ صَبَاحْ:

هَلْ تَرضَى عَنْ تِلكَ الصُّحْبَةْ

هَلْ تَشْعُرُ بالزَّهو حِيَالِي

أمْ تَخْجَلُ يَا قَلبَ ظِلالِي

هَلْ تَشعُرُ بالأنْس وَتَرضَى

أمْ تَمضِي خَلفِي مُمْتَعِضَا

وَتَضِيقُ بضِيق مَعِيَّتِنَا

وَتَرُومُ الطُّرقَاتِ الرَّحْبَةْ

قُلتُ لِظِلِّي ذَاتَ صَبَاحْ:

مَنْ مِنَّا يُضْنِيهِ الآخَرْ؟

مَنْ يلهَثُ في إثر الآخَرْ

مَنْ يَخْتَارُ مَعِيَّةَ خِلِّهْ

أَمْ مَنْ مِنَّا في رحلَتِنَا

يَتَمَنَّى يُفْلِتُ مِنْ ظِلِّهْ

يَتَخَيَّرُ مَسْعَاهُ وَدَرْبَهْ

قُلتُ كَثِيراً لَكنْ ظِلِّي

ظَلَّ صَمُوتاً لَمْ يَهْمِسْ لِي

وَأَنَا قُلتُ لِنَفسِي: خَيراً

إنَّ الصَّمْتَ رضاً وَمَحَبَّةْ

كلنا بحاجة إلى ساعات للتأمل، ووقفات للمراجعة، ونظرات في طبيعة العلاقات، وأولى العلاقات بالمراجعة والتأمل علاقتنا بذواتنا؛ لأنها مفتاح كل العلاقات الأخرى.

لسنا في حاجة إلى المرايا كي نحدق في أعيننا ونسائل أنفسنا، بل نحن بحاجة إلى النظر في أعماق أنفسنا، والتحاور مع ذواتنا لنكتشف إلى أى حد نحن راضون عنا، أو خجلون منا، إلى أي درجة نحن متسقون معنا أو مختلفون عنا، ما مدى ضيقنا بنا أو ثقتنا فينا؟

ساعات تأمل الذات والتحاور معها ليست ترفاً رومانسياً، وليست شططاً فلسفياً، خاصة في مثل هذه الأوقات التي تتداخل فيها الرؤى، ويعلو فيها الصخب، ويرتفع فيها الضجيج، إلى الحد الذي يجعل الإصغاء إلى صوت الذات غاية بعيدة قد لا تدرك أصلاً.

للقطيع سطوته، وللصوت العام جبروته، ونحن كثيراً ما تأخذنا خطواتنا إلى حيث يمضي القطيع متوهمين أننا نحن نختار الطريق، وكثيراً ما يلقى ذلك الصوت العام أصداءه على نبرتنا الخاصة، فنظن أن ما ننطق به كله يمثلنا وحدنا، ويخصنا وحدنا، وينتمي لنا وحدنا، وما هو كذلك.

ولا بأس في أن نتماهى مع الجمع وأن نتوحد مع المجموع، شريطة ألا يكون ذلك على حساب صدقنا مع ذواتنا، واتساقنا

مع أنفسنا، وألا يكون الصوت العام صخباً أجوف، وألا تكون خطوات الجمع شططاً ضالاً مضلاً.

لم أنس يوماً رائعة الأديب العربي المبدع "فتحي غانم" عن ذلك "الرجل الذي فقد ظله"، وتصور أنه يربح كل شيء، بينما هو في الحقيقة يخسر نفسه ويفقد ظله، ولكني لم أكن أتصور أن يأتي زمن يصبح فيه الاتساق مع الذات أمراً بهذه الصعوبة التي توشك أن تبلغ درجة المستحيل، ولم أكن أتصور أن المعركة من أجل الحفاظ على الظل وعدم خسارة النفس يمكن أن تكون بهذه الضراوة.

على أية حال فإن الغاية تستحق هذه الصعوبة، والهدف يستحق هذه الضراوة.

لأنني إنسان

دَقَّاتُ قَلبي سَبْحَةٌ صُوفِيَّةٌ

فِيهَا دُعاءٌ خَاشِعٌ مُتَسَامِ

في كُلِّ هَتْفَةٍ خَفْقَةٍ أُنْشُودَةٌ

تُلقِى بشَارَاتِ الضِّيَاءِ أمَامِى

أُصْغِي لأَسْمَعَ بَوحَ قَلبي صَادِحاً

في القَلبِ صَمتِي، هَتفتِي، إلهَامِي

هُوَ كَنزُ إحْسَاسِي وَرَوضُ مَشَاعِرِي

يَصْفُو، فَتَصْفُو مُهْجَةُ الأَيَّامِ

دَقَّاتُ قَلبي حِينَ يَسْرِي هَمْسُهَا

يَسْرِي شُعَاعُ رَائِقُ الأَنْغَامِ

وَيَسِيرُ في أُفُقِي سَحَابٌ هَائِمٌ

سِرْبُ السَّحَابِ يَصِيرُ سِربَ يَمَامِ

تَتَمَاوَجُ الأَحْلامُ في أَسْرَابِهَا

وَالقَلْبُ يَرقُبُ مُهْجَةَ الأَحْلامِ

إنها خواطر الصوم حين ترسم أفقها الخاص، حين تتحول الأفكار والأحاسيس إلى سرب من اليمام الأبيض يهيىء للقلب عرشاً نورانياً ويدعوه إلى أن يبرأ ولو قليلاً من ضجيج الوقت وزحام المكان، يدعوه إلى أن يصوم ولو لساعات عن صخب الأفكار الآنية المرهقة، وأن يفتح باباً لمعراج الروح صوب سماء مختلفة!!

صحيح أني إنسان دائم الإصغاء إلى حديث قلبه، دائم الحوار معه، لكن للإصغاء الصائم مذاقاً آخر ، وللحوار الصائم إحساساً آخر، نعم أنا مؤمن بأن قليلاً من تأمل الحياة يصلح الحياة، ولكنى أؤمن أيضاً بأن الانغماس في هذا التأمل قد يضيع على الإنسان فرصة أن يحيا الحياة، وقد وُهبنا الحياة لكي نحياها، أما في ساعات الصوم فنوافذ التأمل مفتوحة دائماً، وشرفاته لا تغلق أبوابها أبداً، لذلك يبقى للتأمل الصائم إيقاع فريد.

كثيرون ساءلوني وتساءلوا معي: إذا كان هذا حال النفس في رمضان، وإذا كانت تلك حال الروح في رمضان، فلماذا لا نصحب هذه الحال طوال العام، ولماذا لا نحتفظ بهذه الروح على مدى العام، ولا إجابة عندى غير أن الإنسان إنسان، يتذكر وينسى، يحلق ويهبط، يسكن ويثور، يتأمل الحياة وينغمس في الحياة، وما أظنه إلا سيبقى هكذا دائماً.

لذلك فإحساسي الصائم يرى قلبي داخلاً في سبحة صوفية راقية، وليس في غيبوبة صوفية يألم لوصفها أصحاب الأرواح الراقية، وحواري مع القلب هو حوار ممتع دائماً، لأنه يجسد لي إنسانيتنا معاً، قلبي وأنا، لكن هذا الحوار الصائم يكون فوق إمتاعه رائقاً صافياً جميلاً.

على أني أعلم أني سأنسى بعد تذكري، وسأهبط بعد تحليقي، وسأثور بعد سكينتي، وسأنغمس في الحياة بعد تأملي الحياة، لأنني إنسان، ولأنني سعيد بكوني إنسانا.

الجياد المُكبلة

عَلَى مُدُنِي سَأَتْرُكُ بَعضَ ذَاتِي

أُعَلِّمُهَا ، لِتفقهَ مُفْرَدَاتِي

سَتَقْرَأُ سِيرَةَ الوَطَنِيِّ فِيهَا

وَتَلْمِسُ رُوحُها رُوحَ الحَيَاةِ

وَتُوقِنُ أنَّنِي بَيتٌ فَصِيحٌ

وَ أنَّ الشِّعْرَ أَعْظَمُ مُعْجِزَاتِي

حَيَاتِي مُذْ بدَأتُ الحَبوَ سَطْرٌ

مِنَ الأَشْعَار، يُومِضُ في التِفَاتِي

هِيَ الأَشْعَارُ مُعْجِزَتِي وَجُرحِي

قَضِيَّةُ أُمَّتِي سِرِّي نَجَاتِي

فَيَا طرُقَ المَدِينَةِ تِلكَ رُوحِي

فَهلْ أبْصَرْتَ سِرَّ تَأمُّلاتِي

وَهلْ فَتَّشْتَ عَنْ وَطَنِي بِقَلبِي

فَذَاعَ العِطْرُ فِيَّ وفِي صِفَاتِي

وَهَلْ دَاعبْتَ وجْدَانِي فَغَنَّى

وَلاحَتْ مِصْرُ أصْدَقُ تَمْتَمَاتِي

مازلت أثق أن المسافة ما بين التغني بالوطن وبمحبته وبجلاله من جهة والإيمان الحقيقي به والعمل الحقيقي من أجله واسعة شاسعة بينة، ومازلت أؤمن بأن الوطن لا يحتكره أحد، وبأن وطنية الإنسان لا تقاس بمقدار ما يتغنى بوطنه، ولا بمقدار ما يعلو صوته أو إن شئت ضجيجه في فضاء الوطن.

من حق الوطن أن يزهو بإنجازاته، ومن حق المصريين أن يفرحوا بقدرتهم على الإنجاز، وأن يحاولوا الإفلات من حالة الاكتئاب القومى التي تلقي بخيمتها عليهم لسنوات طويلة ولأسباب متعددة، من حقهم أن يبتكروا أسباباً للفرح، وأن يمارسوه بكل قوتهم وكل رغبتهم في الإفلات من هذا الاكتئاب القومي الخانق الذي خيم عليهم لعقود متوالية، وهم يرون جيادهم الأصيلة مكبلة، بينما كل صنوف الخيول تجري في المضمار.

أقول من حق الوطن أن يزهو، ومن حق المواطنين أن يفرحوا، لكن ليس من حق الإعلام ولا الإعلاميين أن يحولوا هذه الفرحة إلى خواء إعلامى وفكري لا يضيف سطراً ولا ينشر معلومة ولا يجسد رأياً، وإنما يكتفي بمقولات خطابية زاعقة لا تُفهم عقلاً ولا تثري وجداناً.

الأصوات العالية والنبرات الزاعقة ليست معياراً للوطنية، والإعلاميون الحقيقيون ليسوا هتافين ولا خطباء، وإنما واجبهم الحقيقي أن يقدموا معلومة صحيحة دقيقة صادقة، ورأياً

عميقاً مخلصاً بناءً، ساعتها سيكونون على قدر الساعد الذي ضرب ليحفر أو يبنى، وعلى قدر العرق الذي سال لكي يروي، وعلى قدر القرار الذي انطلق ليخوض التحدي.

دعونا ننتقل جميعاً من ساحة الهتاف والخطابة إلى ساحة العمل الجاد الحقيقي الذي يؤمن بأن الكلمة تحفر وتبني وتروي وتقاوم وتتصدي حين تكون صادقة جادة عميقة مخلصة، وأن الصورة تفعل الفعل ذاته حين تتصف بالصفات ذاتها.

لا أقول إن الكلمة لا معنى لها، ولا إن الصورة لا أثر لها، بل على العكس تماما، أقول إن معنى الكلمة وأثر الصورة أعظم من أن نمتهنهما أو أن نحولهما إلى فعل زاعق أجوف، أومطية لمصلحة شخصية ضيقة.

دعونا نكن على قدر حقيقية مصر وجلالها وعظمتها لا في مشاعرنا فحسب بل فيما نقول وما نعتقد وما نعمل، فمصر تستحقنا هكذا، ونحن نستحقها حين نصبح كذلك.

مصر وسرها العميق

نَورسٌ حُرٌّ وحيدْ

كانَ يرنُو من بَعيدْ

فَوقَ أسرابٍ تَعالَتْ

يَرتَقِي رَأسٌ وَ جِيدْ

نَورسٌ يَبدُو هُنَاكْ

مُستَهَاماً كَالمَلاكْ

فاقتَربْ و انظُرْ و حَدِّقْ

مَن سَيفهَمُهُ سِواكْ

نَورسٌ يبدُو هُناكْ

أنتُمَا صِنوَان دَوما

أبصَرَا في الكَون حُلما

فَاستَفَاقَا واستَهَامَا

هَلْ تُرَى تَلقَاهُ يَوما

نَورسٌ في الأفُق يَنظُرْ

هلْ تُرَى بى سَوفَ يَشعُرْ

أمْ سَيمضِي مُستَضِيئاً

عَلَّهُ بالحُلمِ يَنظُرْ

كانت زيارة خاطفة إلى دمياط، تكفي فقط لأن أقول لأمي كل عام وأنت تملئين الدنيا خيراً وبركة، وتملئين حياتنا بهجة ودفئاً، كل علم وأنت سر العطاء في كوني الصغير، ومعنى العطاء في كوننا الكبير.

كانت زيارة خاطفة نعم ولكن الطريق ذهاباً وإياباً كان كافياً ليجدد في روحي شعورها العميق بأن مصرنا جميلة طيبة خيرة، وأنها أرحب كثيراً من تلك الشاشات الضيقة التي تختصرها في تلك المكلمة المرهقة التي تشعرك بأنك توشك على أن تختنق ، تلك المكلمة التي يتحدث فيها من لا يعرفون، فتحس بأنك تتنفس بصعوبة، وأن الهواء أقل من أن يفي باحتياج رئتيك من الأكسجين النقي الذي خلقه الله.

نعم مصر أرحب كثيراً من تلك المكلمة كما أنها أجمل كثيراً من ذلك الهراء الذي تصوره الدراما، ذلك الهراء الذي لا يحتاج مني أن أختار له وصفاً، فقد أحكم الحصار حول أرواحنا جميعاً، بعد أن حاصر أعيننا وآذاننا وكاد أن يحتل عقولنا.

أحسست على مدى الطريق أني أتنفس هواء الله النقي الطيب الخير، وأن المدى الرحب الذي يمتد أمامي يمنح عيني مخزوناً من آيات الجمال يكفيها لأن تواجه كل ملامح القبح التي تفرض عليها ليل نهار.

أحسست وكأن مصر تعيد تقديم ذاتها إلىَّ لتطهرني من كل الدرن الذي ران على عقلي وقلبي وروحي بعد أن احتل حواسي كلها.

أحسست أني أود أن أهتف قائلاً: يا أبناء مصر لا تسمعوا عنها بل اسمعوا منها، دعوا مصر تصف لكم ذاتها بذاتها، فهي أدرى بها من كل من سواها وكل ما سواها.

هل كنت سابحاً في نوبة عشق رومانسية محلقة بعيداً عن تضاريس الواقع ونتوءاتها، أم أنى كنت أنفذ إلى سر مصر العميق ومعناها المتجدد؟!!

حين حدثتني دمياط عن الانتماء

"إني لأعْجَبُ

كيفَ يمكنُ أنْ يخونَ الخائنون!

أيخونُ إنسانٌ بلاده!

إنْ خانَ معنى أنْ يكونَ

فكيفَ يمكنُ أنْ يكون؟!"

تلك كانت كلمات الشاعر العراقي المدهش بدر شاكر السياب التي تداعت إلى ذهني حين دعاني الروائي المصرى المتميز فكري داوود إلى المؤتمر السنوي لإقليم شرق الدلتا الثقافي، والذي عقد تحت عنوان "الأدب وقضايا الانتماء"، والتقى فيه أدباء محافظات أربع هى دمياط والدقهلية والشرقية وكفر الشيخ.

ذلك أن كلمة "الانتماء" تظل من الكلمات المحيرة، فكثيراً ما نضيق بتكرارها على الألسنة، ربما لأننا نراها واحدة من البدهيات المسلم بها، والتي لا تحتاج إلى أن تتحول إلى أغنيات أو شعارات أو قضايا للمناقشة، كما أننا كثيراً ما نضيق بأولئك الذين يحتكرون معناها أو يتصورون أنفسهم أوصياء

على هذا المعنى، فنحن لا ننتمي إلى أوطاننا أداء لواجب ولا وفاء لحق، وإنما ننتمي إلى الوطن حتى يتحقق وجودنا الذاتي، فلا وجود لي دون انتماء إلى وطن يكتمل به ذلك الوجود وتتجسد في محبته تلك الكينونة.

كان طبيعياً أن يتبارى الأدباء والمبدعون في تأكيد معنى الانتماء والحض عليه، لكن المدهش حقاً هو ما جاء في كلمة محافظ دمياط الدكتور إسماعيل عبد الحميد والتي ألقاها نيابة عنه اللواء سامي حمودة السكرتير العام للمحافظة، وكان وجه الإدهاش فيها هو ذلك الحديث المهم عن أهمية الثقافة ودور المثقفين، وكيف أن ما يعانيه المجتمع في المرحلة الحالية ما كان له أن يقع لولا تراجع مكان المثقف ومكانته، أو إقصاء المثقفين عن صدارة المشهد، وأن ميزان المجتمع لا يمكن له أن يستعيد استقامته مجددا إلا بعد أن تستعيد الثقافة مكانها في الرؤوس ويستعيد المثقفون مكانتهم في المجتمع.

كان الحديث مدهشاً ومهماً لأنه يأتي من التنفيذيين والسياسيين الذين كثيراً ما أثر عنهم أنهم ينظرون إلى الثقافة والمثقفين بغير قليل من الريبة والحذر إلى حد شيوع العبارة الشهيرة المنسوبة إلى "جوبلز" وزير الدعاية النازي، تلك العبارة التي تقول: "كلما سمعت كلمة مثقف تحسست

مسدسي"، فضلاً عن وصف سياسي مصري كبير جدا للمثقفين في مرحلة سابقة بأنهم "الأفندية" أو "جنرالات المقاهى".

من أوقد وهج الضوء؟

مِنَ أيِّ أبوَابِ الجَلالِ عَبرَتَ لِي؟

أوقَدتَ نُورَ اللّهِ فِي ذَاتِي

فَأصبَحتِ البَصيرةُ تَجتَلِي

وَسكبْتَ فِي عَقلِي ضِياءً

هَزَّ رُوحِي

مثلَ وَحيٍ مُنزَل

هَيَّأتَ بُستَانَ الخَيَال

وقُلتَ لِلذَّات اسْتَضِيئِي وَانهَلِي

وَوقفتَ عِندَ تُخُومِ مَملَكَةِ

التَّوهُّج حَارساً

رضوانَ نورِ

قَلتَ للرُّوح ادخُلِي

وأنَا كِيانٌ

كُلُّهُ شَغفٌ

كَأني قَلبٌ صُوفِيٍّ وَلِي

التَّوقُ يَملؤُنِي

فَأصعَدُ فِي مَدَى الوَجدِ العَلِي

وَمعِي جَنَاحَا لَهفَةٍ

وتَطَلُّعٍ وَتَخَيُّلِ

وَمعِي سُؤالٌ

لا يُغَادِرُ مُهجَتِي:

مِن أيِّ أبوَابِ المَلائِكَةِ الكِرامِ

دَخلتَ لِي؟!

كثيرون منا لا يلتفتون إلى القيمة الحقيقة التي يمثلها المعلم في عقول تلاميذه وطلابه، ولا إلى المكانة التي يحتلها في حيواتهم، وخاصة في المراحل الأولى من التعليم، وكيف أنه لا يمثل فقط مصدراً للمعلومات، وإنما يتحول إلى البوابة الملكية للعبور إلى الحياة.

هو في أعين طفولتهم جبل شامخ، وقطب جليل، وملاك بشرى يمشى على الأرض. إذا أحبوه أحبوا كل ما يقول، وإذا أحسوا بإخلاصه صار كل ما يقول قوانين عيش ودستور حياة.

تذكرت هذا وأنا أكتب إهداء كتابي الجديد "الإلقاء فن المبدعين"، حيث وجدتني أكتبه على هذه الصورة: "إلى أستاذي في المرحلة الابتدائية "فخري علي الدين"، أول من أوقد وهج الصوت في ضوئي، وإلى أساتذتي في المرحلة الثانوية "الدكتور متولي البساطي" و"الدكتور ربيع عبد الرحيم" و"الأستاذ فؤاد محروس" من فتحوا لي حدائق اللغة وبساتين الأدب.

ولو شئت الإنصاف لسبقتهم بمعلمة الصفوف الأولى من تعليمى "أبلة شهيد"، وإنما كان وقوفي أمام هؤلاء الأقطاب الأربعة لاتصالهم العميق بموضوع الكتاب الذي يحمل الإهداء إليهم.

فهذا القطب الذي أوقد الضوء في صوتي كان أول من دعاني، وأنا في العاشرة من عمري، لأقف خطيباً وسط ذلك الجمع، الذي كان يبدو لعيني طفولتي جمعاً حاشداً لانهاية له، من الأساتذة والتلاميذ وأولياء الأمور ومسؤولي الجهات التعليمية واثقاً أني سأوصل الرسالة على خير وجه، وأظنني لم أخذله يومها، وأما الأقطاب الثلاثة فكان لكل منهم منهجه الخاص في تحبيب اللغة والأدب إليّ، وتحبيبي إليهما، وكانوا يصبرون كثيراً على نزق مراهقتي، ومشاكسة شبابي الباكر، وأنا أدرب ذائقتي وحجتي وقدرتي على النقاش، بل والجدال، وأحيانا المكابرة.

كان ثالثهم يتفنن في التعامل مع مفردات اللغة، مستقصياً جذورها كاشفاً عن حيويتها، وكان الثاني يحيل النحو حديقة للبهجة، والقصائد بساتين للنزهة، أما أولهم فكان معنياً ببناء شخصية الأديب داخلي، وأظنه كان يرى بعين بصيرته أنه سيكون لي مع الأدب عامة والشعر خاصة شأن وأي شأن.

أتذكر هذا، وأنا أتأمل حال التعليم في بلادي اليوم، وأتساءل عما سوف يدين به تلاميذ اليوم لمدرسيهم وأساتذتهم في الغد القريب.



مدهشة تلك الرائحة التي تسري في أشهر الربيع في كل عام، لا أتحدث عن رائحة الأزهار التي تسري في أجواء الدنيا، ولا عن رائحة الفتوة التي تسري في آفاق الروح، ولكن عن رائحة الذكريات التي تحمل الإنسان إلى زمن الصبا الجميل وذكرياته الاستثنائية.

أنا شخصيا تحملني هذه الرائحة إلى روح المغامرة اللذيذة التي ارتبطت بثمار التوت على أشجارها السامقة التي تحفظ خرائط أرواحنا، ربما بأكثر مما نحفظ نحن خريطة توزيع أغصانها.